القابيرو في إقليم كردفان
(ملامح من تاريخ السلم الاجتماعي في السودان)

د: عوض شبّا
مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر - السودان

المستخلص:

يتناول هذا البحث موضوعاً مهماً في التاريخ الاجتماعي في السودان ويكشف عن جوانبه من حركة الهجرات البشرية من غرب إفريقيا إلى السودان وتمازجها وتلاقحها مع المكَونات الاجتماعية والثقافية المحلية ؛ ومنهم القابيرو إحدى مجموعات الفلاتة إلي السودان ومدى اندماجهم في المجتمعات المحلَية، وتلمس الجوانب الإيجابية فيه بقدر الإمكان، منها أن منطقة البرداب في جنوب كردفان مركز استقرارهم قد توفرت فيها نوع من السلام الاجتماعي والاستقرار رغم اختلاف مكوناتها الاجتماعية في واقع إقليمي تعتبر فيها ظاهرة الصراعات الإثنية والاقتصادية هي السمَة الواضحة. بعد استقرار القابيرو في البرداب اندمجوا في المجتمع المحلَي وتلاحقت ثقافتهم الوافدة مع الثَقافات الموجودة تأثيرا وتأثرا، وسرعان ما انخرطوا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وأهلَتهم سيرتهم الطيبة ليكونوا على قمة الهرم الإداري فى المنطقة حيث تم إختيار الشريف عبد الله عمدة للبرداب والأغراب الأفريقيين، ثم خلفه ابنه محمد على العمودية.

الكلمات المفتاحية: القابيرو، الفلاتة، كردفان، السلم الاجتماعي، السودان

Kabiro in the Kordofan region
(Features from the history of social peace in Sudan)

D: Awad Shaba Basin countries-Sudan

Abstract:

This research deals with an important topic in social history in Sudan, and reveals its aspects of the movement of human migrations from West Africa to Sudan, mixing and crossing them with local social and cultural components; Including the Kabiro, one of the groups of Al -Falaza to Sudan and the extent of their integration in local societies, and the sides of the sides Positive in it as much as possible, including that the Bradab region in South Kordofan has the center of their stability has provided a kind of social peace and stability despite its different social components in a regional reality in which the phenomenon of ethnic and economic conflicts is the clear Sama. After the Kabiro stabilized in the pillow, they integrated in the local community and their incoming culture with the existing and influential cultures, and soon they were involved in social and economic life .And their good biography, to

be at the top of the administrative pyramid in the region, where Sharif Abdullah was chosen as the mayor of the African strangers and Bradab, then his son Muhammad succeeded him on the vertical.

Key words: Kabiro, Al -Fallatah, Kordofan, Social Salad, Sudan

المقدمة:

دار في أوساط الأكاديميين والمثقفين السودانيين نقاش طويل حول الصراع الثقافي والإثني بين المهاجرين الوافدين والسكان المحليين، وخاصة بعد الهجرات العربية المسلمة الي السودان عقب سقوط الممالك النوبية المسيحية في القرن الخامس عشر للميلاد، وتبني السودانيين للثقافة الإسلامية وعدد مقدر منهم النسب العربي، ولكن كانت النظرة مغايرة بالنسبة للمهاجرين من غرب إفريقيا، وربما ارتبطت ذلك بالظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية لهجرتهم، أو لعدم وجود دراسات كافية توضح ملابسات هذه الهجرات والأدوار والإسهامات التي قامت بها هذه المجموعات في مختلف المجالات في تاريخ السودان بعد هجرتهم. وقد تؤسس مادة هذا البحث لأطروحة جديدة للتعايش السلمي للمكونات السودانية الحالية الوافدة والمحلية من خلال مفهومي الاندماج الاجتماعي والتفاعل الثقافي.

اعتمد هذا البحث علي منهج البناء التاريخي كمنهج أساسي والمناهج المساعدة، كما زاوج الباحث بين الكتابة العلمية والتقيِّد بالطرق المنهجية، والكتابة بأسلوب مبسط بعيداً عن الصرامة الأكاديمية، من أجل كتابة حبكة تاريخية لموضوع هجرة القابيرو الفلاتة إلي السودان واستقرارهم في البرداب وإبراز مدى ندامجهم الاجتماعي وتفاعلهم الثقافي في وطنهم الجديد ، وذلك من خلال المادة المرجعية التي توفرت لديه، وكان المفترض أن يقوم الباحث بزيارة مجموعة القابيرو في مناطقهم، ولكن ظروف الحرب حالت دون ذلك؛ واستعاض عنها بالتواصل مع بعض أبناء القابيرو عبر الواتساب للحصول على بعض المعلومات التي تخص هذه المجموعة.

تم تقسيم هذا البحث إلى ثلاثة محاور، تناول الأول الجغرافيا والإنسان في إقليم كردفان، وركز على المكَّونات الاجتماعية في ولاية جنوب كردفان مكان الهجرة والثاني تطرق بشيء من التفصيل للتعريف بالفلاتة إحدى المجموعات الكبيرة والمهمة التي وفدت من غرب إفريقيا إلى السودان بالحديث عن هجرة القابيرو-موضوع البحث- وأسبابها وخط سير رحلتهم من(قاوا) في مالي حتى استقرارهم في منطقة البرداب بجنوب كردفان. وتحدث المحور الثالث عن تكوّن كيان إداري جديد في البرداب باسم عمودية الأغراب الأفريقيين المزارعين، تحت قيادة العمدة الشريف عبد الله القابيراوي.

جغرافية إقليم كردفان:

تعددت التعَريفات والأراء حول أصل اسم أو كلمة كردفان، منها أن كلمة كردفان كانت ترمز في البداية لجبل (كردفان) الذي يقع (بين خطي13,04درجة و30,21 درجة شرقاً) بالقرب من منطقة العين، وهذا الاسم أخذ من أهالي كردفان لقولهم (كلد فار) أي كلد يغلي، وكلد هذا آخر ملوك

النوبا(النوبة) الذين أحتلت منهم قبيلة الغديات جبل كردفان، ومن عادة هذه المجموعة التنقل خلف المرعى والماء، فوجد هذا الاسم انتشاراً واسعاً، وأصبح يطلق على كل إقليم كردفان[1]، رواية أخرى تقول أن كردفان مأخوذة من الكلمة النوباوية (كلدوفان) التي تعني في لغتهم أرض الرجال[2].

يقع إقليم كردفان بين (خطى طول 16-9 درجة شمالاً، وبين النيل وخط عرض 27,30، وطوله حوالي 400 ميلاً وعرضه حوالي 350 ميلاً)، وتبلغ مساحة الإقليم نحو 130,500 ميلاً مربعاً، وتمتد حدود الإقليم شمالاً في الصحراء الكبرى من نقطة في الشمال الغربي قرب خط الطول 16,30 درجة شمالاً تقريباً، ويستمر حتى هوباجي وآبار جبرة حتى فتاشة فيقاطع (خط الطول 15,27 درجة) من ناحية الضفة الغربية للنيل الابيض، وتصل حدود إقليم كردفان شرقاً إلى نقطة قرب الجبلين محازية النيل جنوباً حتى بحيرة (نو). وأما حدوده الجنوبية فيكَونه خط يبدأ من التقاء بحيرة (نو) ببحر الجبل على امتداد طولي متعرج في اتجاه غربي. ومن ناحية الغرب يفصل كردفان عن دارفور سلسلة من الكثبان قرب تلال أم كدادة حيث تضيف أم بادر وفوجا لكردفان ويستمر الخط الغربي في اتجاه جنوبي حتى بحر العرب[3]، (أنظر: خريطة

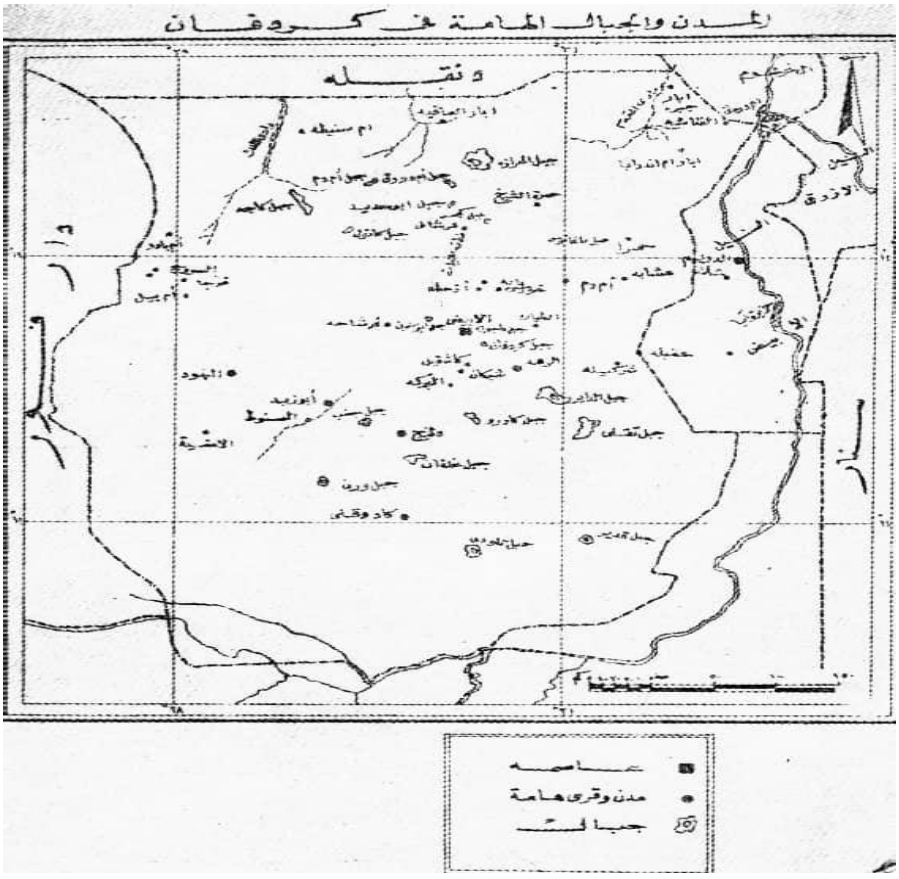

خريطة رقم (1) (نقلاً عن: عوض عبد الهادي، 1973م،ص219)

وفي عام 1994م تم تقسيم إقليم كردفان إلى ثلاث ولايات، وهي: شمال كردفان، غرب كردفان وجنوب كرفان (أنظر:خريطة رقم(2).

خريطة رقم (2)

(نقلاً:عن شبكة الانترنت)

أهم المعالم الجغرافية لولاية جنوب كردفان هي جبال النوبة، وتقع منطقة جبال النوبة (بين دائرتي عرض «10 - 12.5» درجة شمالاً وخطي طول «29 – 31» درجة شرقا)، والهضاب غير المستوية تفصل بينها أودَية عريضة تعرف محليا بالودَيان ويتفاوت سطحها ما بين تربة طينية رملية تنساب في سلاسة إلى جبال وهضاب ذات تكوينات صخرية معقدة تفصل بينها أودية منخفضة لا تصلح للزراعة ولا للرعي تعرف باسم (الفاوة) ، وأخرى تعرف باسم (الحدب)، وهي تربة طينية سوداء متشققة تصلح لزراعة القطن وتنبت فيها حشائش ،تصلح للرعي وتتخلل جبال النوبة سلاسل جبلية متفرقة وهي من أنواع الجرانيت وبعضها عال الارتفاع يصل إلى خمسة

آلاف قدم فوق البحر، وعدد الجبال فيها كبير يقال أنها تسع وتسعون جبلاً، ولكن يبدو أن هذا التحديد ليس على سبيل القطع وإنما كناية عن كثرة الجبال فهي كثيرة تزيد عن هذا العدد بكثير، وتلاحظ وجود كل قبيلة على جبل أو سلسلة جبلية بحيث تتطابق أسماء القبائل والجبال، فتجد قبيلة كادقلي تحيطها سلسلة جبل كادقلي، وقبيلة الدلنج تحت سلسلة جبال الدلنج ،وقبيلة أجرون فوق قمة جبل أجرون، وقبيلة المورو على سلسلة جبال المورو، وجلدوتيمين وتلشي وشات وكتلا والمندل والصبي والكاركو، وهكذا تتطابق أسماء القبائل والجبال[4].

أما المناخ السائد فهو مناخ السافنا بأمطاره الغزيرة التي تتراوح معدلاتها (ما بين 400 – 800 مليمتر تقريباً) في فصل الخريف، والذي يستمر عادة من منتصف شهر مايو إلى شهر أكتوبر ويعتبر شهري يوليو وأغسطس الأعلى معدل الهطول الأمطار، والمنطقة في عمومها منطقة اقتصادية غنية بالأراضي الزراعية والبستانية كما توجد المياه الجوفية بكميات محدودة، وتعتمد أهم موارد المياه في المنطقة على مصدرين أساسين هما:

الأول: مياه سطحية وهي تشمل: عدة أحواض أهمها حوض خور أبو حبل وحوض خزان ميري وخور البرداب وخور العفن وحوض بحيرة كيلك وخور أم برمبيطة، وعلى الرغم من إشتهار المنطقة بكثرة خيرانها المنحدرة من الجبال إلا أنه لا توجد مصادر ثابتة للمياه وهنالك مواقع العديدة الصالحة لإنشاء السدود والخزانات في تلك المناطق المحصنة بالجبال.

الثاني: مياه جوفية من الآبار والمضخات والآبار (الإرتوازية) حيث ترتبط مناطق السكان ارتباطاً وثيقاً بمنطقة وجود المياه الجوفية والسطحية حيث أن عمق المياه الجوفية في أجزاء من المناطق يتراوح ما بين مترين إلى ثلاثة أمتار، وهذه تمثل مناطق رعي لكثير من القبائل الرعوية التي ترتادها في فصل الصيف وقد ساعدت هذه الموارد المائية على وجود غطاء نباتي كثيف يتمثل في الحشائش المتنوعة في السهول الطينية وكذلك ساعد على نمو أنواع عديدة ومتنوعة من الأشجار ذات الثمار والاستخدامات الأخرى، وأهم الأشجار التي تنمو في منطقة جبال النوبة العرديب والنبق والتبلدي والقضيم والطلح والكتر والجميز والحميض واللالوب والجوغان والدليب والدوم الخ..(5).

التركيبة السكانية:

أما من ناحية التركيبة السكانية في إقليم كردفان فإن الإقليم يمتاز بالكثافة السكانية وتعدد قبائله، وذلك بسبب ثراء الإقليم وتعدد موارده وثرواته، وموقعه الجغرافي الوسط لأنه نقطة إتصال بين مناطق السودان المختلفة وبين السودان وغرب إفريقيا، ولذلك أصبح نقطة إنصهار وتواصل لعدد كبير من القبائل السودانية وقبائل غرب إفريقيا، وكذلك القبائل العربية التى وفدت من الجزيرة العربية عبر مصر خلال الحقب التاريخية المختلفة(أنظر: خريطة رقم 3). وسيكون تركيزنا بصورة أساسية على ولاية جنوب كردفان لارتباطه المباشر بموضوع هذا البحث.

ويمكن تقسيمها في تقديرنا لثلاث مجموعات رئيسية وهي:

المجموعة الأولي (قبائل النوبة):

تذكـر بعـض الأراء بأنهـم أصـل سـكان الجبـال،وفي روايـة أخـرى أنهـم جـاؤا مـن شـمال السـودان ونزحـوا إلى هـذه المنطقـة بسـبب الحـروب وانهيـار الممالـك التـى قامـت عـلى ضفـاف النيـل مثـل مملكـة مـروي، ثـم الممالـك النوبيـة المسـيحية وتدفـق المجموعـات العربيـة المسـلمة مـن مـصر إلى عـشر مجموعـات عـلى أسـاس اللغـة عـلى النحـو التـالي:-

1. مجموعـة الكواليـب وتشـمل الكواليـب، مـورو، هيبـان، أطـورو، تـيرا، بالإضافـة إلى مجموعـة مـن القبائـل الصغـيرة.
2. مجموعـة النمانيـج وتضـم القبائـل القاطنة بالقـرى التاليـة: النتل، تنديـة، سـلارا،كلارا،كرمتي، حجـر السـلطان، والفوس.
3. مجموعة كادقلي: وتضم قبائل كادقلي، كرنقو، تلشي، كاتشا، قبائل ميري -3
4. مجموعـة تلـودي والمسـاكين وتضـم قبائـل تلـودي، اللـيري، أجـرون، تجـو، وقبائـل أخـرى صغـيرة.
5. مجموعـة الأجانـج (الأجنـق) وتضـم الجبـال السـتة(كرورو، الكـدرو، كافـيرا، كولدجـي، دبانتـه، كاركـو) وانشـو، ووالي، وفنـدا، كاشـا، طبـق، أبـو جنـوك ،الدلنـج، الكدر،الشـفر.
6. مجموعة تقلي: وتضم الرشاد، تومي، الكجاكجة، التقوى، الموريب، وغيرها.
7. مجموعة الداجو: وتضم الداجو والشات بأقسامها واللقوري.
8. مجموعة تيمين، وتضم قبيلة تيمين، تيس، كيقا. -8
9. مجموعة كتلا: وتضم قبيلة كتلا وجلد.
10. مجموعة لفوفا وتضم لفوفا، وأميرا [6].

المجموعة الثانية(البقارة):

البقـارة ليـس اسـماً لقبيلـة ولكـن نسـبة لتربيتهـم وامتهانهـم رعـي الأبقـار، وهـم قبائـل عديـدة منهـا الحوازمـة والمسـيرية، يعيـش البقـارة داخـل جبـال النوبـة ويسـكنون السـهول بـين الجبـال التـي تناسـب حياتهـم الرعويـة والمتنقلـة وهـم مسـلمون جميعهـم بـل أسـهموا في نـشر الدعـوة والثقافـة العربيـة في جبـال النوبـة وكان لهـم أثـر كبـير في ذلـك لاحتكاكهـم المبـاشر بالنوبـة وانصهارهـم وتزاوجهـم وتحالفهـم معهـم، وأهـم القبائـل العربيـة (البقـارة التـي تسـكن منطقـة جبـال النوبـة) هـي المسـيرية والحوازمـة والكواهلـة وكنانـة.

1. المسـيرية: هـي مـن قبائـل البقـارة التـي اسـتوطنت منطقـة جبـال النوبـة منـذ القـدم في القـرن السـادس عـشر الميـلادي وهـي قبيلـة ذات أصـل واحـد تفرعـت إلى قسـمين هـما المسـيرية الـزرق والمسـيرية الحمـر. لقـد درج المسـيرية الحمـر والـزرق عـلى حركـة مـد وجـذر داخـل جبـال النوبـة إذ يبـد أون الترحـال مـن شـهر نوفمـبر حتـى مايـو ثـم يقفلـون راجعـين بسـبب البعـوض والأمطـار والشـتاء، وتتمثـل مناطـق مرعـى المسـيرية الحمـر في منطقـة مـيري، كـرسي، أبـو سـنون، بحـيرة كيلـك ويظلـون في تلـك المناطـق حتـى بدايـة الخريـف حيـث يرجعـون إلى

كيلـك فيشـتغلون بالزراعـة أمـا المسـيرية الـزرق فتتمثـل مناطـق مرعاهـم في منطقـة كمـدا، الداجـو، أبـو جنـوك، دميـك ومركزهـم الأسـاسي لقـاوة والفولـة.

2. الحوازمـة: يشـكل الحوازمـة غالـب الوجـود العـربي في منطقـة جبـال النوبـة حيث سـكنوا في وسـط وشرق الجبـال، وإن لم تخـل منطقـة في الجبـال مـن أفـراد قبيلتهـم غـير المناطـق التـي تنتـشر فيهـا المجموعـات العربيـة الأخـرى، لاسـيما الحمـر ويقـضي الحوازمـة غالـب وقتهـم بـين شـعاب الجبـال وينزحـون في موسـم الأمطـار إلى جهـة الشـمال، ولم يتقيـد الحوازمـة في رحلاتهـم بقوانـين موضوعـة أو سياسـات مرسـومة الأمـر الـذي أسـهم في بلـورة التعريـب في منطقـة جبـال النوبـة.
3. الكواهلـة: ضمـن مجموعـات العـرب التـي اسـتقرت في منطقـة جبـال النوبـة وقـد تركـز وجودها في المنطقـة الشرقيـة، ولاسـيما في مناطـق كالوقـي واللـيري وبلولـة والترتـر والكواهلـة كسـائر المجموعـات العربيـة درجـوا عـلى القيـام بجـولات رعويـة داخـل منطقـة الجبـال.
4. كنانـة: انتـشرت قبيلـة كنانـة في الأجـزاء الشرقيـة مـن جبـال النوبـة خاصـة مناطـق اللـيري، أبـو جبيهـة، كالوقـي، والترتـر ويمتـد نشـاطها إلى داخـل الجبـال عـبر جـولات الرعـي الموسـمية، أسسـوا علاقـات متينـة مـع مجموعـات النوبـة الأخـرى ومـع قبائـل تقـلي ورشـاد.
5. الشـوابنة: في إطـار الهجـرات التـي انتظمـت السـودان إبان تدهور الأحـوال السياسـية والاجتماعية عقـب حمـلات الدفـتردار الانتقاميـة اتجهـت بعـض القبائـل إلى الجنـوب الغـربي نحـو جبـال النوبة عـبر بوابتهـا الرسـمية آنـذاك مملكـة تقـلي الإسـلامية، واسـتقرت هـذه المجموعـة حـول جبـل شـيبون الـذي اشـتهر بالذهـب للدرجـة التـي دعـت محمـد عـلي باشـا لإرسـال بعثاتـه للتنقيـب في تلـك البقـاع لم تكـن منطقـة شـيبون خاليـة مـن السـكان آنـذاك ولكنهـم توغلـوا إلى أعـماق جبـال النوبـة عنـد وصـول هـذه المجموعـات الوافـدة فيـما بعـد عرفـت هـذه المجموعـات بالشـوابنة منسـوبة إلى جبـل شـيبون وهـي مجموعـة قبائـل حـدث بينهـا التـزاوج والتصاهـر وحـدث اختـلاط ليـس فيـما بينهـا فحسـب بـل مـع قبائـل النوبـة سـكان المنطقـة الأصليـين، وتكونـت مجموعـة الشـوابنة مـن قبائـل المسـلمية، الجلابـة، الهـوارة الحسـانية، الجندبـاب، الجميعـاب، الحسـبلاب، العبـدلاب والبشـاريين، كل هـذه القبائـل انصهـرت في بوتقـة واحـدة، اتحـدت عاداتهـا وتقاليدهـا التـي لم تكـن تختلـف كثـيراً فهـي أصـلا قبائـل عربيـة ثـم حـدث اختـلاط ومصاهـرة مـع قبائـل النوبـة الذيـن وجدوهـم بالمنطقـة، وبعـد تفـشي الأمـراض وقلـة ميـاه الـشرب في منطقـة شـيبون قـدم الشـوابنة إلى مناطـق دافـريء ومنـدي وعقـب والشـواية شرق كادقـلي وهـي مناطـق تتوفـر فيهـا الميـاه الجوفيـة بينـما وصلـت مجموعـة منهـم إلى مدينـة كادقـلي واسـتقرت بقريـة السـمة جنـوب كادقـلي. ويبـدو أن القبائـل العربيـة التـي نزحـت إلى منطقـة جبـال النوبـة وخاصـة البقارة كانـت ترعـى الإبـل وتجـوب بهـا المنطقـة بـين كردفـان ودارفـور حتـى حـدود المديريـة الشـمالية ثـم تحولـت مـع الظـروف الجغرافيـة والطبيعيـة إلى تربيـة الأبقـار والزراعـة[7].

المجموعة الثالثة:

وهـي المجموعـة التـي جـاءت مـن إفريقيـا الغربيـة وسـنفرد مسـاحة أكـبر للملامـح العامـة لهجرتهـم إلى السـودان ثـم نفصـل مايعينينـا في هـذا الفصـل التـالي:

تشير الشواهد التاريخية إلى أن تحركات السكان في حزام السافنا قديمة ترجع إلي عدة قرون، وقد ساهم عدم وجود الموانع الطبيعية في شمال نهر السنغال وحتى البحر الأحمر على تدفق هذه التحركات، وأقدمها في هذا النطاق كانت من الغرب إلي الشرق، ويبدو أن فكرة الزراعة المطريَة قد انتقلت من الغرب إلي السودان عن طريق المزارعين المهاجرين في حدود سنة(2000م). وربما حدث تدفق رئيس من الهجرات بشكل أكبر من الغرب بعد عام (1340م)[8]، وكذلك أثبتت الدراسات الأركيولوجية التى قام بها فريق من العلماء في تلال دارفور أن السودان الشرقي لم يكن بمعزل عن بقية نطاقه الممتد غرباً على الأقل حتى حوض نهر النيجر حيث كانت تربط بين النيجر والنيل روابط تجارية وعلائق ثقافية خلال القرون السابقة[9]، وقد إزدادت هذه الهجرات أبَان الاستعمار البريطاني للسودان (1898 - 1956م) والذي رفع عن جميع رعايا الدول الإفريقية وخاصة دول غرب أفريقيا أية قيود للهجرة، وترك حدود السودان مفتوحة أمامهم ليدخلوا السودان من قبائل شمال نيجيريا وتشاد والنيجر ومالي وبوركينا فاسو وغيرها من دول غرب وأواسط أفريقيا وأثيوبيا وأرتيريا من الشرق، ويعتبر القرن التاسع عشر الميلادي وما صاحبه من تغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية تمثَّلت في دخول الاستعمار الغربي لأفريقيا وتكالبه المحموم على خيراتها ذا أثرٍ مهم في حركة الهجرات الوافدة إلي السودان لما أحدثته من يسر في الدخول إلي الأراضي السودانية[10].

تعتبر علاقة السودان بدول غرب إفريقيا أو السودان الغربي علاقة قديمة جداً- كما أشرنا- فقد كانت هناك رحلات رعوية للبحث عن المرعى وتداخل قبلي بين أقطارها، لهذا ظل السودان يستقبل قبائل الفلانين الرعويَة مروراً بتشاد ودارفور إلى مناطق النيل الأزرق وأعالي النيل لمئات السنين. كما أستقبل في القرن الخامس عشر الميلادي مجموعة من قبائل الفلاتة في رحلات الرعي عبر برنو ثم دارفور حتى وصلوا إلى سودان وادي النيل لذلك أصبح السودان ملتقى طرق لكثير من المجموعات، وتشير الدارسات إلى أن السودان بحكم موقعه الجغرافي ظل معبراً طبيعياً لحجاج غرب إفريقيا منذ آلاف السنين، فمنذ دخول الإسلام إلى إفريقيا كانت قوافل الحجاج تتجه إلى الأ ارضي المقدسة عبر السودان إلى أن تصل إلى موانئ البحر الأحمر (سواكن،عيذاب) وكانت الطرق التي يسلكها الحجاج هي الطرق التجارية المعروفة آنذاك والتي تأتي عبر دارفور أو من كردفان عبر الأبيض – شندي – بربر – سواكن أو عبر الأبيض – سنار– سواكن أو من خلال درب الأربعين الذي لعب دوارً مهماً في مطلع القرن الثامن عشر كمعبر لحجاج شمال غرب إفريقيا، وعزز وصول خط السكة حديد إلى الأبيض – سنار- قوز رجب- كسلا - سواكن في عام 1911م من دور هذه الطرق في أداء فريضة الحج بالنسبة لحجاج غرب إفريقيا(11)؛ ومما يؤكد عمق وقدم العلاقة بين السودان ودول غرب إفريقيا وجود كثير من المجموعات بالسودان، فهناك وجود مقدر للفولاني في السودان في منطقة تلس منذ القرن السابع عشر. كما وأنه مع بداية الاحتلال لمالي والسنغال خرجت أعداد كبيرة منهم اتجهت نحو الشرق (نحو مكة) في القرن الثامن عشر فوصلت أعداد منهم إلى السودان من إفريقيا الوسطى بزعامة العمدة الشريف محمد ماول الذي استقر في قرية

البرداب بالقرب من كادوقلي، ومنهم من توجه إلى النيل الأزرق بقيادة الشيخ الرفاعي الذي أسس قرى أبوجيلي، الحجيرات، أبو لبن والشيخ أبو هاشم الذي أسس قرية ود هاشم وروينا. وعند قيام الثورة المهدية كان الداعم الأساسي لها قبائل غرب إفريقيا – فقد أمر الشيخ عثمان دان فودي أتباعه بمناصرة المهدي– فهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى السودان، ولما وصلت طلائع القوات الإنجليزية شمال نيجريا 1903م خرج سلطان سكوتو وأتباعه واتجهوا شرقاً، ولما قتل واصل إبنه وأتباعه هجرتهم حتى وصلوا السودان 1904م واستقروا في قرية الشيخ طلحة بالنيل الأزرق تحت ضيافة الشيخ طلحة بن حسين الفولاني، ثم تأسست قرية مابرنو 1905م(12)،(أنظر: خريطة رقم4).

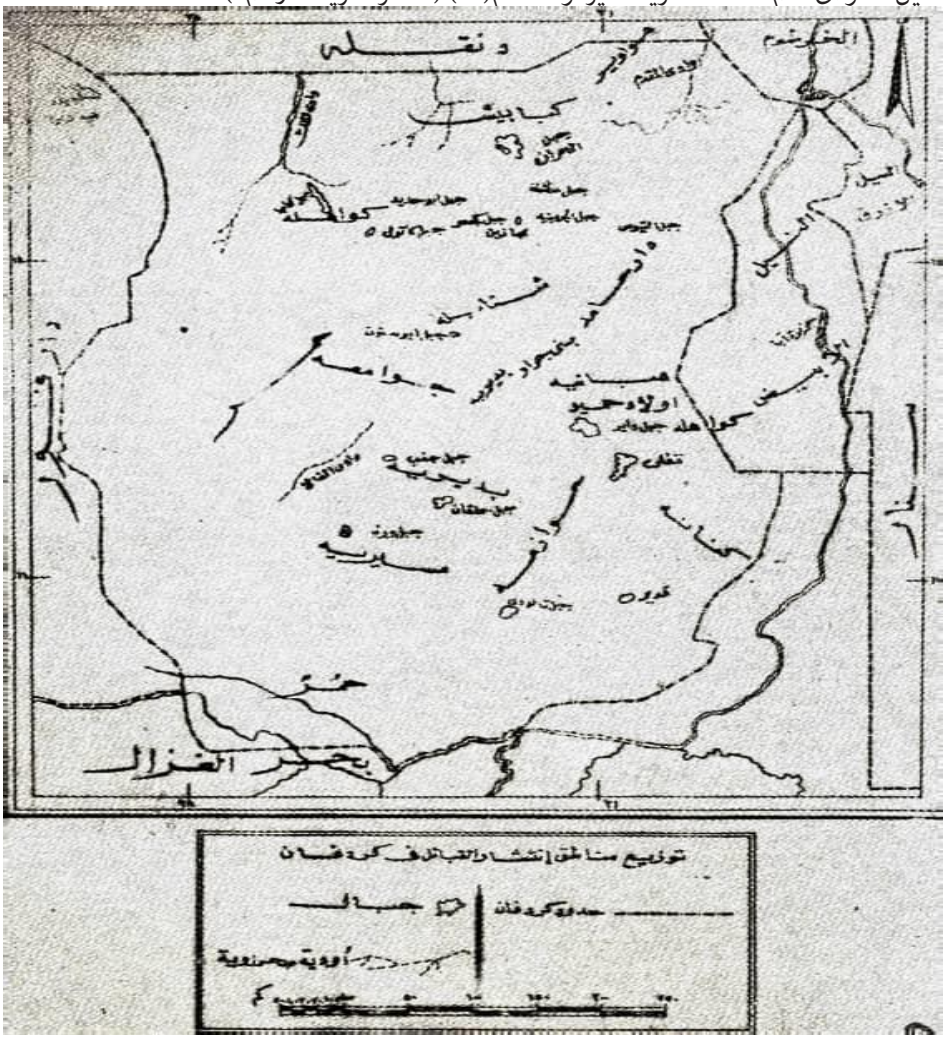

خريطة رقم (3)

(نقلاً عن:عوض عبدالهادي، 1973م،ص218)

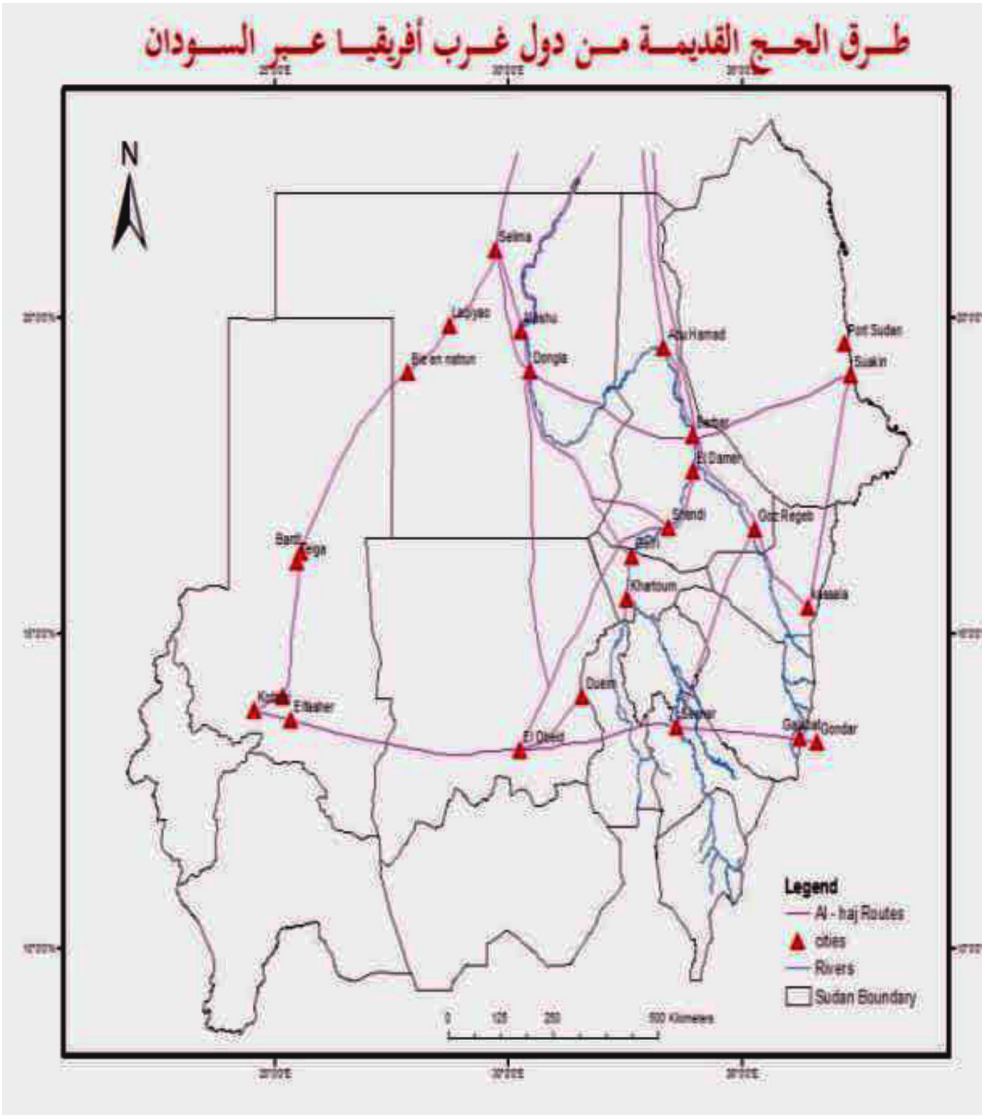

خريطة رقم (4)

(نقلاً عن: شادية السيد الحسن، المرجع السابق)

القابيرو في جنوب كردفان:

الفلاتة وهجرتهم لكردفان:

تعددت الأسماء التى عرف بها الفلاتة المجموعة السكانية المشهورة بهذا الاسم،وكذلك باسم الفولاني، فهم يطلقون على أنفسهم اسم (الفولى) أو(البولي)،ولفظ (فولاني) هو الاسم الذي أطلقه الهوسا على مجموعة من السكان كانوا يسمون أنفسهم فولبي (Fulbe)، وهواللفظ الشائع

استخدامه في نيجيريا، كما عرفت هذه المجموعة بأسماء أخرى كالبولز (Peuls) والفلا (Fula)، وأطلق عليهم أهل برنو وكذلك السودانيين اسم فلاتا/فلاتة (Fellata)، والراجح أنها تسمية عربية قد يكون مصدرها الإفلات من الحدود، ويعرفون عند الولوف باسم بوب، بينما سماهم الفرنسيون بيل، والإنجليز فولب في صيغة الجمع ومفردها بولو(Buluo). أما كلمة فولاني فهي التسمية التي استخدمتها قبائل الهوسا نقلاً عن البربر المسلمين ولا سيما الطوارق ويعني بها المستقرين منهم[13].

اختلف المؤرخون حول أصل الفلاتة وظَّلت مسألة أصلهم لغزاً من الألغاز التاريخية لم تفك طلاسمه بعد على يقين، وذلك لإختلاف المصادر التى أشارت إلى مكان منشأهم الأول، ونَجمل أهم هذه الأراء في الأتى:

- أصلهم هندي.
- أنهم من اليهود.
- أنهم من المصريين الحاميين القدماء.
- لهم علاقة بالفينيقيين.
- نتاج تزواج جنود الأمويين مع نساء البربر.
- أحفاد عقبة بن نافع[14].

ويمكن أن نضيف سبباً آخر لكثرة الأراء حول أصل الفلاتة وهو ملامحهم غير الزنجية فى محيط زنجي وأوصافهم: صفر البشرة، ذو شعر سبيبي ناعم، رقاق الأنف والفم، رشيقو القوام، شبه بيض سحنتهم عربية[15].

وفي ذات الإطار هناك وجهة نظر أنثربولوجية أُثيرت حول أصل الفلاتة تقول أن هذا الجنس قد تواجد أثرياً، وبيئياً، واجتماعياً، وتاريخياً في غرب أفريقيا منذ بدء تاريخ المنطقة[16].

أما الدراسات اللغوية فقد قسمت الفلاتة إلى ثلاث مجموعات وهي:

الأولى: ترى أن اللغة الفولانية (الفلفلدي) في الأساس هي لغة شعب زنجي تكروري، ثم اكتسبها شعب من البيَضان من الأصل اليهودي، السوري «Judeo-Syrian» وأصبح أحفادهم هم الفولانيون.

الثانية: تعتقد أن العنصر التكروري الأسود هو الأصل، أما العنصر الرعوي المتنقل الذي يشبه البربر فهو مجرد مكتسب لهذه اللغة.

الثالثة:أرجعت الفولاني للأصل السامي معتمدة في ذلك على أعمال علماء الفولاني في القرن التاسع عشر الذين أرجعوا أصل الفولاني لعقبة بن نافع الذي عمل على نشر الإسلام بين البربر مباشرة بعد الفتح العربي الإسلامي لشمال إفريقيا[16].

ويعرف أحمد إبراهيم الفلاتة أو الفولان دون الخوض في تفاصيل أصولهم بأنهم:» أكبر تجمع مسلم فى غرب إفريقيا، وقد عرفوا طوال تاريخهم بأنهم الشعب الدعاة للإسلام فقد حملوا الإسلام من موطنهم، في مرتفعات فوتاجالون وفوتاتورو على سواحل المحيط الأطلسي واتجهوا به شرقا حتى بحيرة تشاد. وهم منتشرون في ١٨بلداً في إفريقيا الغربية والوسطى في تجمعاتهم الكبيرة

مـن نيجيريـا والسـنغال وغينيـا ومـالي والكمـيرون والنيجـر والسـودان ولديهـم للتقاليـد الإسـلامية الجميلـة انتقلـت مـن أجدادهـم الذيـن قامـوا بنـشر الإسـلام في تلـك المنطقـة مثـل عثـمان دان(ابـن) فوديـو الـذى أسـس إمبراطوريـة إسـلامية في أوائـل القـرن التاسـع عـشر بعـد جهـاد طويـل.»[17].

وينقسم الفولاني(الفلاتة) إلى قسمين:

الأول:الرعـاة فيعرفـون بفريريـان كـيرابي (Firarian Kiriaba) في لغـة الفـولاني «الفلفلـدي»، وبأمـبررو (Moborrorioj) لـدى الهوسـا أو أصحـاب البقـر، وإحتفـظ الفـولان الرعـاة إلى درجـة كبيرة بخصوصيتهـم العرقيـة ومـازالوا يحتفظـون بشـكلهم البربـري، ويحسـبون أنفسـهم أكثر نقـاء وأرفع مـن المصاهـرة والاختـلاط بـأي عنـصر آخـر، وهـم يتميـزون بالإنعـزال والتوحـش.

الثـاني: المسـتقرون والذيـن يعرفـون في لغـة الهوسـا بفـولاني جـدا وهـم نتـاج خليـط بـين الفـولاني الأصليـين بالقبائـل الأخـرى التـي اختلطـت بهـم أثنـاء ترحالهـم وهجرتهـم، وهـم يعملـون بالزراعـة، وإلى هـذه المجموعـة ينتمـي معظـم الحجـاج[18].

أمـا عـن هجـرة الفلاتـة إلى السـودان فقـد أسـلفنا فيهـا القـول، ونشـير في هـذه الجزئيـة بصـورة عامـة عـن أماكـن تواجدهـم في إقليـم كردفـان ثـم نفصـل عـن هجـرة القابـيرو وهـم فـرع مـن الفلاتـة الـذي ينتسـب إليهـم العمـدة محمـد الشريـف عبـد اللـه. وكـما ذكرنـا فـإن هجـرة الفلاتـة إلى السـودان قـد مسـت إقليـم كردفـان منـذ أوائـل القـرن التاسـع عـشر للميـلاد، وأن قدامـى المسـتوطنين بجبـال النوبـة كانـوا في الأصـل حجاجـاً، ويرجـع تاريـخ وصولهـم إلى مـا قبـل المهديـة وذلـك في عـدد مـن المناطـق منهـا رشـاد والدلنـج ولكـن كان نمـو مواطـن الاسـتقرار بهـذه المناطـق كان بطيئـا. وجـاء في تقريـر مديـر كردفـان عـام ١٩١٧م أن عـدد الفلاتـة قليـل، وازدادت أعدادهـم في تقريـر عـام ١٩٢٠م، وفي عـام ١٩٢٤م تعـددت القـرى التـي اسـتوطنوها فيـما يجـاور إلـيرى، كادوقـلي، تلـودى ،تقـلي وغيرهـا ومـن ذلـك الحـين بـدأت تلـك المواطـن في النمـو السريـع عـلى أثـر نجـاح زراعـة القطـن لأنهـم يتميـزون بأنهـم نافعـون في الزراعـة والتنميـة الزراعيـة[19].

من هم القابيرو:

تقـول الأسـطورة المحكَّيـة وسـط القابـيرو القاطنـين بمنطقة قـاو أن الجـد الثامن الملقـب بالبيضاوى قـدم الى منطقـة قـاو عـلى حـوض نهـر النيجـر فى بدايـة القـرن الثامـن عـشر مـن شـمال الصحـراء ، تحـرك مـن موطنـه برفقـة زوجتـه وابنتـه عـلى ناقـة، وهـو وابنـه حمـر كلى عـلى الناقـة الأخـرى لعبـور الصحـراء، و بعـد المسـير قـررت الزوجـة عـدم إكـمال السـفر وطالبـت بالعـودة (تصورهـا الاسـطورة كالجنيـة بيضـاء طويلـة القامـة) حينهـا أصر الجـد عـلى المواصلـة مـع الولـد والبنـت، وهنـا قالـت الجـدة للجـد البيضـاوى: أنظـر خلفـك ان اللـه عـز وجـل قـد قسـم بيننـا ، تقـول الروايـة: أن الجـد حـين التفـت وجـد البنـت تـأكل مـن سـنام الناقـة، فوافـق عـلى القسـمة البنـت مـع والدتهـا للعـودة لديارهـما وواصـل هـو المسـير إلى جنـوب الصحـراء حتـى وصـل منطقـة قـاو حـوالى عـام 1725م، وقـد إشـتهر بأنـه كان ملثـماً وعالمـاً متصوفـاً، تـزوج بعدهـا مـن قبائـل الفـلان فـرع قابـيرو فى منطقـة قـاو، ويزعـم البعـض فى العائلـة أنـه مـن الـدار البيضـاء ومنهـم مـن يقـول أنـه مورسـكى وأخـرون يقولـون أنـه مـن الأشراف [20]. وتقـول روايـة

أخرى أن القابيرو قبيلة من الفلان من عائلة أردو ماسينا بحوض نهر النيجر الاوسط بجمهورية مالي، هاجر جدهم الاول أردو إمام صالحو مع ابنه شبيبى وإخوته وأبنائه : زينى شبيبى ، حريرى شبيبى ، قابلو شبيبى ، بدرو شبيبى ، شيخو بيرو شبيبى ، شيخو كاجا شبيبى ، احمدو شبيبى، نديلا شبيبى ، تاى شبيبى ، وأختهم هاجرة شبيبى إلى منطقة قاو عاصمة إمبراطورية سنغاى الإسلامية و ذلك فى بدايات القرن الثامن عشر الميلادي، استقروا داخل مدينة قاو فى حى فيرنجيرى بالقرب من مسجد اسكيا محمد و ذلك فى عهد سيطرة الارما على امبراطورية السنغاى أي بعد الغزو المغربي للإمبراطورية ، ويعرف عنهم أنهم بيت علم ودين ، التف حولهم بعض العائلات الفولانية التي كانت قد سبقتهم الى قاو كعائلة احمن شيكو و سمباجو وغيرهم، فى أثناء تواجدهم فى قاو أطلق عليهم اسم القابيرو وهى تعنى بلغة السنغاى قا : المكان ، بيرو : الكبير والمعنى المكان الكبير، الرواية الأولى تشير أن الاسم اطلق عليهم من قبل جيرانهم السنغاى والارما سخرية لصغر حجمهم والرواية الثانية تقول: ان جدهم هو من اطلق عليهم الاسم تيمناً [21]. وفى ذات الإطار يفسر محمد محمود كلمة قابيرو بالمجموعة كبيرة العدد بلغة السونقي وأن سبب هذه التسمية أن مجموعة من الفولان هاجرت من منطقة ماسنا بحوض النيجر في بدايات القرن الثامن عشر للميلاد تقريبا إلي منطقة قاو بمالي واختلطوا بمجموعة سكانية تعرف بالسلنقي وهم الأصل أيضا كانوا فرع من الفولان هاجروا إلى هذه المناطق في فترة أقدم مع الوضع في الإعتبار أن الحدود الجغرافية والسياسية الحالية لم تكن موجودة، فأطلق عليهم السكان الأصليين اسم قابيرو تحقيراً لهم لقلة عددهم[22]، وينسبهم البعض إلي مدينة قاو،وربما هذا الاسم صلة بإمارة غبيرو التى إنطلق منها ثورة الشيخ عثمان دان فوديو[23]. ويطرح عبدالحسيب عبدالله الشريف تساؤلا مهما وهو؛ هل قابيرو قبيلة؟ ثم يحاول أن يجيب عليه بقوله: من المفترض أن يكون جميع أفراد القبيلة من سلف واحد - من المفترض أن يتحدث جميع أفراد القبيلة لهجة واحدة من اللغة - من المفترض أن يكون لجميع أفراد القبيلة ثقافة مشتركة -كلمة Gabero ليست اسما لقبيلة - مؤسسو Gabero هم عائلات من أصل الفولاني - تتكون Gabero بشكل أساسي من عائلات الفولاني التي تنتمي في الأصل إلى عشائر الفولاني المختلفة - تسببت الإقامة الطويلة لهذه العائلات بين أفراد سونغهاي والزواج المتكرر مع Songhay وغيرها من الجماعات المندمجة في أن يكون Gabero من الفولاني العرقي وينتمي لغويًا إلى Songhay - لقد حافظوا على طريقة عيشهم الفولاني ، بينما يقول لسانهم شيئًا آخر - اختلافهم عن الفولاني في اللغة والتشابه مع أسلافهم الفولاني يجعلهم مزيجًا مميزًا وهوية جديدة هي كائن اجتماعي بين شعب الفولاني والمجموعات الناطقة بلغة سونغاي من جيرانهم في المنطقة -مما يجعل قضية Gabero أكثر تعقيدًا هو العناصر الأخرى غير الفولانية التي انضمت إلى Gabero منذ فترة طويلة وأصبحت جزءًا من هوية Gabero ، لذلك فإن أفراد Gabero هم مزيج من عائلات من أصول مختلفة [24]. وجملة القول حول هذا الموضوع- على حسب إفادة محمد محمود- أن معظم المكون الأثنى للقابيرو أصوله فولانية واختلطت مع هجرات أفراد وجماعات قليلة العدد من بقايا دولة الاندلس من الأمازيغ وطوارق وعرب مغاربة ويشهد على ذلك تباين سحناتهم من

اللـون الابيـض والاسـمر وفحوصـات(DNA) التـي اجريـت لبعـض افـراد منهـم. وفقـد القابـيرو لغتهـم الأصليـة وصـاروا يتحدثـون لغـة السـونقي إلي جانـب اللغـة العربيـة لغـة القـرآن الكريـم، ولهـم طبـل مـن الفخـار كرمـز للسـلطة(25)، (أنظـر: صـورة رقـم1).

صورة رقم (1)

الطبل رمز السلطة عند القابيرو

هجرة القابيرو إلي السودان:

أمـا عـن هجـرة القابـيرو، تاريخهـا، أسـبابها، خـط سـيرها والصعوبـات والمخاطـر التـي واجهتهـم أفـاد الـسر النـور بتسـجيل صـوتي فيهـا تفصيـل وأفـئ نـورد جانبـاً منـه لأهميتـه فقـد ذكـر بـأن هجـرة القابـيرو مـن قـاوا بـدأت عـام 1898م لأسـباب عديـدة منهـا الخلافـات الداخليـة التـي أضعفـت القابـيرو

بسبب الصراع حول الزعامة بعد وفاة أبوبا عثمان الذى كان قد خلف خاله كنو كوركا تم إختيار إبنه مودو خليفة له، ولكن نازعه على الخلافة أخيه الطموح شينو فتنازل له مودو، فظهر له منافس آخر هو حافظو شيتي، وفي ظل هذه الإنقسامات قتل بعض القابيرو أحد افراد قبيلة الطوارق القوية وأصحاب السطوة في تلك الفترة، فخشى القابيرو من بطشهم فقرروا الهجرة، وهناك عامل آخر سارع في ذلك وهو وصول الجيوش الفرنسية إلي غرب أفريقيا وسيطرتها على عدد من الممالك الإسلامية منها مملكة الفوتو عام 1891م ، وقد راسل أمرائها الغابيرو الذين يشاركونهم الطريقة الصوفية التيجانية، وحذروهم من أن الفرنسيين المسيحيين قد يجبرونهم على تغيير دينهم الإسلامي لهذه الأسباب وغيرها ساهمت في عملية هجرة القابيرو الذين تحركت قوافلهم من قاو قاصدين الأراضى المقدسة في الحجاز مما يضفي على هجرتهم هذه بعدا دينياً. وعبروا نهر النيجر للضفة الشرقية، وعند وصولهم إلى إيرو وهي منطقة حدودية بين مالي والنيجر تعرضت القافلة لهجمات الكورتي أحد فروع الفولان ولكن القابيرو نجحوا في صدهم، وواصلوا سيرهم حتى وصلوا منطقة فلنجي الجبلية. وكان ثراء القافلة وكثرة ماشيتها من الأبقار جعلها مطمعا لأهل فلنجي وغيرهم، ولكنهم بحسن تدبيرهم وبفضل فرسانهم تمكنوا من التخلص من كل المؤامرات والمكائد التى تعرضوا لها وواصلوا رحلتهم التى امتدت لفترات زمنية طويلة لأنهم عند كل فصل خريف يقومون بالزراعة والحصاد في المكان الذي يتواجدون فيه من أجل توفير القوت ورعي ماشيتهم، وفي الطريق تجدد الصراع القديمة بين حافظو الذي قرر الرجوع إلى قاوا وشينو الذى استمر في رحلته حتى وصل إلى منطقتي قومبي وبوشى شرق نيجيريا للعبور إلي تشاد، وتزامن تواجدهم مع وصول قافلة محمد طاهر(طاهرو) ملك سكوتو بعد تعرضه لهجوم الانجليز عام 1903م وكانت وجهته الشرق حيث الأراضي المقدسة، ولكن لاحقه الإنجليز واعترضوا سبيله مما أضطر محمد طاهر للإستنجاد بالمسلمين في المنطقة وناصره الزعيم شينو، وكانت معركة بورمي التى إنتصر فيها الإنجليز وقتل فيها عدد كبير من القابيرو الذين وصلوا فيما بعد إلي تشاد وهناك ترامى إلي مسامعهم أن سلاطين الفور والداجو يطلبون من علماء غرب أفريقيا المكوث معهم لتعليم أبناءهم لذا توجهوا إلى إفريقيا الوسطي إلي كافقنجي وقبل الوصول إليها إنقسم القابيرو إلي مجوعتين الأولي بقيادة كوزينو التى واصلت سيرها إلي كردفان ووصلت الي منطقتي كلبا وعلوان تقريباً مابين عامي (1908 - 1910م)، وهناك رحب بهم الإنجليز من أجل الاستفادة منهم كأيدي عاملة في مشروع جبال النوبة لزراعة القطن قصير التيلة وأسكنوهم في البرداب. أما المجموعة الثانية فكانت بقيادة تيشنو الذى مرض وتوفي في كافقنجي، وكان سبباً في تأخرهم وخلفه أخيه الرفاعي الذى عندما وصل كردفان الي كلبا وعلوان، علم بأن الإنجليز جعلوا كوزينو زعيماً على مجموعة القابيرو والأغراب الأفريقيين في البرداب، فلم يرضه ذلك ففضل أن يتوجه مع مجموعته إلي النيل الأزرق وعملوا في خزان سنار ومشروع الجزيرة ومشروع ، وأسسوا قري أبو جيلي 1928م ثم الحجيرات الحجيرات الخ...[26]. ويضيف العمدة عثمان محمد الشريف في تسجيل لفيلم توثيقي عن هجرة القابيرو بأن الهجرة تمت بعد دخول الفرنسيين والانجليز في غرب أفريقيا، وأصدر الشيخ عثمان بن دانفودي كتاباً بوجوب الهجرة للحفاظ على خوفا من الكفار، ودخل

القابـيرو السـودان مـن كابقنـدي الواقعـة بـين دارفـور وبحـر الغـزال ومنهـا إلى المجلـد ثـم كيلـك بغـرب كردفـان ثـم أبـو سـنون ومكثـوا بهـا اربـع سـنوات ومنهـا انتقلـوا إلى كادوقـلي عـام 1904م واسـتقروا بهـا لمـدة سـبعة أو ثمانيـة سـنوات وكانـوا في هـذه الفـترة يذهبـون إلى منطقـة البرداب للزراعـة ثـم يعـودون لعـدم وجـود المـاء هنـاك في الصيـف، ولم يـرض الإنجليـز تواجدهـم بكادوقـلي حتـى لا يقومـوا بنـشر الإسـلام هنـاك فسـاعدوهم في الاقامـة بالبرداب(27)،(أنظـر: خريطـة رقـم (5)).

خريطة رقم (5)
(نقلاً: عن شبكة الإنترنت)

البرداب مركز القابيرو:

أصبحت منطقة البرداب مقراً للقابيرو ومجموعات أخرى وأوردنا أن السبب الرئيس في استقرارهم في البرداب أن الإنجليز كانوا بحاجة إليهم كعمال لزراعة القطن قصير التيلة بمشروع جبال النوبة على حسب روايات القابيرو، ووردت رواية أخرى بأن الملك محمد رحال _ ملك كادوقلي_ هو من أواهم وأسكنهم فى البرداب، ولعل من الأوفق هنا الإشارة لسياسة الإدارة البريطانية فيما يتعلق بالمهاجرين من غرب إفريقيا في جبال النوبة والتي اعتمدت على عدم الرغبة في هجرات غير محدودة ومفتوحة خوفا من الإفتئات على الأراضي الصالحة للزراعة على حساب المجموعات المحلية من النوبيين، وفي ذات الوقت رأت أن إبعاد كل المهاجرين عديم الجدوى لذا قررت أن من المصلحة ضبطهم وتقليل أعدادهم وخاصة أن هؤلاء المهاجرين -فى نظرهم- سلسى القيادة ومطيعين للقانون وعاملين دؤوبين- فسمحت للمستوطنين من الفلاتة بإقامة معسكرات زراعية في البرداب وكإجراء تحوطي إستحدثت نظام الأذونات التي تفرض على كل أسرة مهاجرة استخراج أوراق تتضمن موافقة السلطات المحلية(28). وسنركز فى هذه الجزئية بالتعريف بالبرداب مستقر أجداد مجموعة من القابيرو ساهمت بصورة كبيرة فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في جبال النوبة.

تقع منطقة البرداب جنوب غرب مدينة كادوقلي بحوالي (27)كلم على الطريق الرئيس المؤدى إلى كادوقلي، وهي جزء من الريف الشرقي لجنوب كردفان، وتعتبر من أخصب الأراضي التي تزرع فيها القطن قصير التيلة، أما عن معنى كلمة البرداب فهنالك عدة تعريفات وأورد العمدة الشريف في كتابه:(فضائل الزراع والحراث والفلاحين) تعريفا للبرداب وذكر:» ... وقرية البرداب أي البارد أي الثابت أي البريد المرتب ...» [29]. و يقال أن اسمها من اسم صياد سكنها مبكراً، يسمى البرداب، وأورد حامد يحيي المأمون تعريفاً جاء فيه ان البرداب من البردبة،وهي صوت أرجل الثيران،وعندما يفيض خور البرداب تسمع له صوت يشبه البردبة، وأفاد الفكي مختار أن البرداب تعني، الرجل القوي [30].

هنالك عدة قرى تسمى،البرداب غير برداب الشريف (برداب كادوقلي)،وهنالك برداب تلودي قرب انقارتو، برداب الدلنج غرب الزلط على مسافة بعيدة قرب الجبال جنوب غرب الدلنج وبرداب الجبال الستة(كلدجي،وكرتالا وكلدجي، وكرورو، الدباتنة والكافير)، ولكن لا سكان بها،والسبب عندما وصل البقارة الرحل اليها، من ضواحي كادقلي، وجدوا فضاء الجبال وبها هواء بارد، وشبهوه بالبرداب، كتذكار عزيز[31]. ومن المعالم الجغرافية البارزة في البرداب، خور البرداب ينبع من منطقة جلد بضم الجيم بالقرب من مدينة الدلنج شمال كادقلي يمر هذا الخور بالبرداب إلي قرية ميري والتي بها خزان بناه المستعمر الإنجليزي بعد قرية ميري يصب الخور في بحيرة كيلك غرب مدينة كادقلي[32](أنظر: صورة 2)، وقرية البرداب تربتها خصبة قابلة للزراعة وملائمة لإنتاج المحاصيل المختلفة، وصالحة لتربية المواشي التي هي مصدر ثروة الفلاتة ومورد رزقهم[33].

صورة رقم (2)

خور البرداب

عمودية القابيرو والأغراب الأفريقيين في السودان:

ملامح من تاريخ النظام الإداري:

يشير محمد عيسى في كتابه عن الإدارة الأهلية إلي الغموض الذي يكتنف تعريف هذا المصطلح رغم شيوعه وظهوره في فترة الحكم الثنائي(1899 - 1956م)(34).ولكن فى جوهره امتداد لنظام إداري محلي قديم، ونورد هنا- وأظنه كافياً- ما جاء في موقع ويكيبيديا من عرض موجز عن ملامح وتاريخ الإدارة الأهلية في السودان بإنها نمط من أنماط الحكم التقليدي انتشر في بلاد السودان منذ عهود السلطنات القديمة كسلطنة الفونج والعبدلاب وممالك التنجر و تقلي والمسبعات، وأخيراً سلطنة دارفور وغيرها من مراكز السلطة في سودان وادي النيل، وتطور هذا النظام خلال التجربة التاريخية للحكم في السودان. وهي بمفهومها العام تعنى إدارة القبائل ممثلة بزعمائها لشئون المناطق والوحدات الإدارية التابعة لها من خلال قواعد العرف والعادات والأخلاق في ظل إشراف السلطة المركزية ورقابتها، وتتمتع بموجب النظم الإدارية بمجموعة من الصلاحيات والسلطات والاختصاصات المحددة وتؤدي مهام معينة تتعلق بقضايا المواطنين في الوحدة الإدارية المعينة التابعة لها

في عهد الحكم التركي (1885-18821م) اهتمت بالإدارة الأهلية وكانت من أهم العوامل التي أدت إلى طول أمد فترة ذلك النظام الممتد من عام 1821م وحتى عام 1885م، نسبة لاستعانته بها في حفظ الأمن وتحصيل الضرائب.

أما في عهد الدولة المهدية (1885 - 1899م) ناصر زعماء القبائل الإمام محمد أحمد المهدي مؤسس الدولة المهدية وناصروه في ثورته ضد الحكم التركي للسودان وساهموا في نجاحها،

ولكن بعد تحول المهدية من مرحلة الثورة إلى مرحلة الدولة قامت قيادة الدولة المهدية ممثلة في الخليفة عبدالله التعايشي بعزل بعض زعماء القبائل واستعاضت عنهم بآخرين من أصحاب الولاء للفكرة المهدية كما قامت بزج البعض الآخر في السجون لعدم ولائهم للمهدية مما أدى إلى تصدع في بنيان الإدارة الأهلية.

بعد سقوط دولة المهدية اعتمد الحكم الثنائي الإنجليزي المصري في السودان(1899 1956-م) نظام الإدارة الأهلية في البادية وبشكل خاص المناطق النائية عن المركز وذلك لانخفاض تكلفته وتقبله من المواطنين وتم تقنينها بقوانين ولوائح ومنشورات تحدد سلطاتها وأسلوب ممارستها التي شملت منح زعماء القبائل بعض السلطات القضائية والأمنية والإدارية، مما مكن زعامات هذه القبائل من الفصل في جميع أنواع الخصومات وضبط الأمن حسب الأعراف والتقاليد وقواعد الأخلاق في تلك المناطق. وقد استغل الحكم الثنائي نظام الادارة الأهلية ووظّفه لمصلحته، فقد كان الحاكم العام يوفد مندوبه إلى الناظر أو السلطان أو الشرتاي لإملاء توجيهاته والذين بدورهم يقومون بإنزال التوجيهات إلى مستويات الإدارة التي تدنوهم درجة كالعمدة والشيخ ثم الخفير، فكانت الجبايات والأتاوات المفروضة من الحاكم العام، يتم جمعها وتحصيلها عبرهم.

أما الهيكل الإداري والتنظيمي للإدارة الأهلية يأتي على قمته الناظر وهو زعيم القبيلة وهناك نوعان من النظار: ناظر القبيلة وناظر عموم القبيلة - عندما تكون القبيلة كبيرة تتكون من عدد من نظار القبائل الأصغر أو العشائر. ويلي الناظر العمدة الذي يدير العمودية وهي جزء من النظارة ثم الشيخ وهو الذي يُدير مشيخة عادة ما تكون حياً سكنياً في الحضر أو قرية في البادية ويطلق عليها حلة (بكسر الحاء وتشديد فتح اللام) أو فريق للرُحل، وله سلطات ومجموعة من الأجاويد أي المحكمين أو المستشارين الذين يساعدونه في عملية تسوية قضايا منطقته، ويتبع الشيخ كل من العمدة والناظر ويأتي في قاعدة الهرم الخفير وهو الذي يتولى مهام الحراسة أو تنفيذ الأوامر قسراً وقد يكون مسلحاً بسلاح ناري تقليدي أو يرتدي زياً عسكرياً لتمييزه عن غيره.

في فترة الحكم الثنائي فقد تم تعزيز الإدارة الأهلية بتنظيمها قانونياً بصدور قانون عام 1922م والذي منح بموجبه زعماء القبائل سلطات وصلاحيات كبيرة لإدارة شؤون قبائلهم ومجتمعاتهم المحلية، وإدارة الأرض ومواردها، وفض النزاعات القبلية، إضافة إلى النظر في الأحكام العُرفيَة بين القبائل. وهو القانون الذي استبدله حاكم عام السودان جون مفي عقب ثورة اللواء الأبيض عام 1924ى م، بقانون سلطات المشايخ لعام 1927 ومن أهم بنوده إنشاء وظائف جديدة في هياكل الإدارة الأهلية كتقدير الضرائب، والاشتراك في جمعها، وفي كيفية إدارة بعض الخدمات الاجتماعية كخدمات الأسواق؛ ونقل النفايات، ودفع مرتبات اعضاء الإدارة الأهلية. أمّا في عهد حكومات ما بعد الاستقلال فقد دخلت الإدارة الأهلية في معمعة السياسة وتم تجريدها من بعض صلاحياتها التقليدية، ففي عهد الرئيس جعفر نميري 1985-1969 صدر قانون الأراضي غير المسجلة سنة 1970 م وبموجبه تم تحويل ملكية الأراضي للدولة بما فيها الحواكير التي كان يعتمد

رجالات الإدارات الأهلية على مواردها في دارفور، ثم صدر في العام نفسه قراراً بحل الإدارة الأهلية في السودان (35).

العمدة الشريف عبد الله (كوزيني):

أول عمدة للقابيرو والأغراب الأفريقيين في السودان هو الشريف عبد الله بن محمد الصديق، الذي سنة 1875م تقريباً في قرية قاو بجمهورية مالي ،ووالدته هي جميلة بنت الصالح عثمان بدأ تلقى تعليمه الدينى في البيت على يد والدته ثم والده لاحقاً بعد أن أكمل حفظ القرآن الكريم على يديها، وهي عادة درج عليها سكان غرب إفريقيا تقضي بأن يحفظ الناشئ القرآن الكريم في بداية تعليمه اعتقادا منهم: أن دراسة القرآن الكريم تعوَد الطفل أن يكتب، وأن يتكلم بلغة فصيحة وأنه يحميه من الرذائل، واصل الشريف عبدالله في حله وترحاله وتتلمذ علي يد عدد كبير من العلماء، وكان للشيخ عبد الله مكتبة غنية تحوي أمهات الكتب في مختلف العلوم ومن هذه المكتبة ومن خلال اكتسابه للعلم من معاشرته للعلماء توسعت مداركه وأنارت له الطريق لتأليف كتابه (فضائل الزراع والحراث والفلاحين) في شكل مخطوطة سنة 1940م(36). وفي تعريف مواز لإبنه عبد الحسيب استلهم ثقافة القابيرو والأسماء المستخدمة في لغة السونغي يتناول سيرة هذا الزعيم الملَهم نورده كما هو: «واسمه كوزيني امّدو ماول الذى بدأ نجمه في الظهور وكان يتيم الأب ولكن والدته وي هنّا الصالحا عثمانا همّدي بنكو « هي إبنة عم سينو ابوبا « سعت إلى تعليم ابنيها كوزيني وسمبا امدو ماول. وكانت تدفع بهم للتعليم تحت المطر وزمهرير البرد وقسوة الجوع حتى تعلما وصار سمبا أحمد سمبو ضليعاً في الفقه وصار كوزيني ضليعاً في علوم اللغة وعلم الباطن حتى قيل بأنه الوحيد في القابيراويين من يفهم لغة وإشارات ورموز إمام العارفين القطب الاكبر محي الدين بن العربي.

ساعد الشريف عبدالله « كوزيني خاله (ابن عم أمه) الزعيم سينو، وتولى عنه الكثير من المهام وبدأ ينهل منه حب الرئاسة والتصدي للقيادة ، وكان كوزيني تلميذاً نجيباً استوعب كل خبرات سينو وكان عمره 25 عاماً. وفي هذه الفترة بدأ الحديث يدور حول كرامات كوزيني « مثل تفجير مياه برك»وغيرها من الحكايات التي يستخدمها البعض لتطعيم مجالس السمر، وعندما ظهرت الإرهاصات الأولى لدخول القابيراويين منطقة سيادة الثقافة العربية الاسلامية استقبلها كوزيني بإبراز المؤهلات المناسبة التي تفيد في هذه المرحلة فأخرج من أضابير التاريخ وتشبعه بالثقافة الاسلامية لقب الشريف الذي لازمه في حياته واورثه لأبنائه واحفاده.

قرر القابيراويون مغادرة فوربنقا عن طريق كفياقنجي التى توفي وقبر فيها الزعيم سينو؛ حزن الشريف عبدالله (كوزيني)على وفاة قائده ومعلمه وخاله وأب أبناء اخته، وتسلّم المسؤولية -قيادة جناح سينو - دون عمامة أو طبل وليس معه سوى قليل من القابيراويين. وصلت مجموعة الشريف كلبا عام 1912م مروراً بدارال رزيقات - وبدأ انجليز مركز كادقلى يفاوضونه في أن يكون مسؤولاً ادارياً ليس للقابيراويين وحدهم بل كل من يأتي من جهة الغرب من الفاشر إلى فوتا وقبل الشريف هذا العرض وبدأ الانجليز في مرحلة لاحقة في توظيف قدراته التنظيمية والإدارية في الإعداد لزراعة القطن قصير التيلة لأول مرة في جبال النوبة.

أقام الشريف عبدالله في جبال النوبة وأسس ومن معه قرية البرداب بنظام إداري قوامه العمدة الشريف وشيوخ كثر منهم شيخ فلاته وشيخ برنو وشيخ هوسا وشيخ الدينكا وشيخ السلامات، وعندما جاء محمد حقار حنفي ابن السلطان حقار حنفي أبقاه الشريف عبدالله عنده وجعله شيخاً على الفور في البرداب تقديراً لمواقف أبيه، وكان مجيء محمد حقار بحثاً عن أخيه تاجر بالسلاح فدلّوه على البرداب ليكتشف الشريف بأنه ابن السلطان حقار - بقى محمد حقار بجوار العمدة ، وفي البرداب رغم الحروب و مغادرة الكثير من أهل البرداب للقرية - وأخيراً إنضم إليه الفلّان الرعاة اهل البادية...»[37].

كان لقب الإداري للشريف عبدالله هو عمدة الأغراب الأفريقيين المزارعين وكذلك عمدة البرداب، كما جاء فى كتابه(فضائل الزراع والحراث والفلاحين)، والذي فرغ من كتابته ليلة الخميس في اليوم الحادي والعشرين من شهر ربيع الثاني لسنة اِحدى وستين وثلثمائة، الموافق عام 1942م. وذكر في مقدمته»...يقول العبد الفقير. ذو الظن الجميل ذياك الشريف عبدالله محمد الفلّاني القابيراوي نسباً, القاطن في اِقليم كردفان التابع لمديرية الأبيض البيضاء مركز كادقلي جبال النوبة القرير وقرية البرداب ... صناعتي الزراعة وعملي عمدة الأغراب الأفريقيين المزارعين ...»(38)، ولعلنا نقف هنا عند مصطلح الأغراب للتوضيح ،والمراد به هو المنحدرون من غربي أفريقيا، وأما كلمة الغرابة المتداولة في السودان فيقصد بها القاطنون غربي السودان (39).وكذلك استخدم لفظ الغربيون في السودان للدلالة علي العناصر الوافدة من غرب أفريقيا(إقليم السافنا الجغرافي بمعناه الواسع في إفريقيا) عموماً دون الإشارة إلي سلالة بعينها[40].

آلت العمودية لمحمد بعد وفاة والده العمدة الشريف عبدالله سنة 1960/1961م، وولد العمدة محمد الشريف عبدالله عام1914م بمنطقة كفياقنجي وهو الابن البكر لوالده العمدة الشريف عبدالله عمدة قرية البرداب، وقد نشأ العمدة محمد الشريف في كنف والده العلامة العمدة الشريف وكان مقرباً جداً من والده بحكم أنه الإبن الأكبر، ونهل العلم من معين والده وعلماء آخرين فحفظ القران الكريم، وتلقى العلوم الدينية على المذهب المالكي (41)، (صورة رقم 3).

صورة رقم (3)

العمدة محمد الشريف

الخاتمة:

إن إقليم كردفان بموقعه الوسط في السودان، وبموارده الطبيعية المختلفة، وبتسامح أهله، كان محطاً للكثير من الهجرات البشرية التي تمازجت مع السكان الأصليين، لتشكل اليوم ما يعرف بالمجتمع الكردفاني والذي يتكون من ثلاث مجموعات، وهي:

المجموعة الأولى: النوبة(النوبا)

المجموعة الثانية: البقارة

المجموعة الثالثة: الأغراب الأفريقيين.

وكان تركيزنا في هذا البحث على المجموعة الثالثة لارتباطها المباشر بموضوع البحث، ولأنه يمهد له، ومعلوم أن السودان ظل يمثل مهجراً لسكان غرب أفريقيا من أزمان بعيدة، وكان طريقاً ومعبراً للحجاج المسلمين الي الأراضي المقدسة، ثم ازدادت هذه الهجرات مع بداية الاستعمار الأوربي لممالك غرب أفريقيا، كما كان لقيام الثورة المهدية في السودان من العوامل التي تزايد وتيرة هذه الهجرات.

إن تعدد الروايات حول أصول القابيرو يمكن إرجاعها إلى مجموعة القابيرو تشكلت من عدة إثنيات من القبول بالآخر والتسامح الاجتماعي خلال فترات تحركاتها من منطقة لآخري عبر فترات تاريخية طويلة مما يجعلها أقرب إلى مجموعة ثقافية أو قومية.

وقد مثلت هجرة القابيرو من قاو في مالي حتى وصولهم منطقة البرداب في جنوب كردفان أنموذجاً جيداً لشرح أسباب وتفاصيل الهجرات المماثلة التي ونقترح القيام بعمل فليم توثيقي يرصد هذه الهجرات. كما أن استقرارهم في البرداب خلال هذه الفترة يعكس روح السلم الاجتماعي التي تحملها ثقافة المهاجرين وأصحاب الأرض.

ترجع نشأة الإدارة الأهلية الي عهد السلطنات السودانية القديمة ،وارتبطت بتاريخ نشأة مملكة الفونج ومملكة التنجر ومملكة الفور كما يري بعض المؤرخين، وحينما جاءت المهدية استصحبت التكوين القبلي الذي يمثل روح الإدارة الأهلية ، وعملت علي تكريس ذلك النظام واسبغت علي زعماء الإدارات الأهلية الألقاب والرتب وأصبحوا أمراء عززوا من قدرات وانتصارات الثورة المهدية في مقاومتها للمستعمرين ،لم يستطع الإنجليز تجاوز ذلك النمط الإداري في حكمهم للسودان بل عملوا علي تهجينه وتطويره مع ما يتماشى ورغبتهم في احكام قبضتهم علي البلاد ، فعززوا من دور قادة الإدارات الأهلية، الذين وشكلوا عاملاً مشاركاً في إدارة البلاد، ولأول مرة تم إنشأ أول عمودية لهولاء المهاجرين تحت اسم عمودية القابيرو والأغراب الأفريقيين بقيادة زعيم القابيرو الشريف عبد الله (كوزيني)، لتكون أساساً لإندماجهم في النظام الاجتماعي والإداري في السودان.

المصادر والمراجع:

(1) عوض عبدالهادي العطا، تاريخ كردفان السياسي في المهدية(1899-1881م)،(السودان: وزارة الثقافة والإعلام، المجلس القومي لرعاية الآداب والفنون،1973 م)، ص21.

(2) معنى كلمة كردفان، موسوعة ويكيبيديا،(ar.m.wikipedia.org).

(3) عوض عبدالهادي العطا، المرجع السابق،ص9.

(4) إدريس حسن تية، الصراع في جبال النوبة(1985-1956م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة النيلين،2019م، ص13-11.

(5) نفس المرجع ، ص 13-12,

(6) نفس المرجع، ص19-15.

لمزيد من التفاصيل، راجع:

(7) نفس المرجع، ص 22-19.

لمزيد من التفاصيل، راجع:

(8) بدوي رياض عبدالسميع، حجاج غرب إفريقيا في منطقة الجزيرة بالسودان(1925 - 1966م)،في: مؤتمر طرق الحج في إفريقيا، الخرطوم،28 - 29نوفمبر 2016م،(الخرطوم: الأمانة العامة لسنار عاصمة الثقافة الإسلامية2017م) الكتاب الثالث، وصف الطرق وآثارها،ص140.

(9) شريف محمد شريف، توطن العناصر الأفريقية الغربية بالسودان، فى: عبدالله عبد الماجد إبراهيم، الخرطوم الشعب الدعاة في مقالات الباحثين وكتابات المؤرخين وبحوث المختصين، ط١ ،(بيروت: مؤسسة الرسالة،2001م)،ص461.

(10) لمزيد من التفاصيل، راجع: بازل دافيدسن، إفريقيا تحت أضواء جديدة، ترجمة: جمال محمد أحمد، (بيروت،1961م).

(11) www.google .com) شادية السيد الحسن، دور رحلة الحج بالسودان: ولاية كسلا

(12) نفس المرجع.

(13) مزدلفة عمر محمد ثاني، التاريخ الإجتماعي لمجموعة الفولاني بجنوب النيل الأزرق في الفترة(2006-1900م)، رسالة ماجستير، معهد الدراسات الأفريقية، جامعة الخرطوم،2007م، ص16-15.

(14) مهدي رزق الله أحمد،(دولة الفولانى الاسلامية)، في: عبدالله عبد الماجد، المرجع السابق، ص100.

(15) (15)عبدالله عبد الماجد إبراهيم،(الفلاتة أو الفولان:من هم؟)، فى: عبدالله عبد الماجد إبراهيم،المرجع السابق، ص٢٥٦.

(16) مزدلفة عمر محمد، المرجع السابق،ص16.

(17) أحمد إبراهيم دياب،(جهاد الفلاني في القرن التاسع عشر) ،في: عبدالله عبد الماجد إبراهيم،المرجع السابق، ص 116.

(18) مزدلفة عمر محمد، المرجع السابق،ص19.

(19) شريف محمد شريف،(توطن العناصر الإفريقية الغربية بالسودان)،في: عبدالله عبد الماجد إبراهيم،المرجع السابق، ص٤٩٩-٥٠١.

(20) النسابون العرب، (alnssabon.com)

(21) القابيرو، (gaberofamily(gaberohome.blogspot.com).

(22) الراوي محمد محمود عمر، معلم لغة إنجليزية بالمدارس الخاصة بود نوباوي، العمر:54عام، التواصل عبر الواتساب.

(23) يوسف فضل حسن، أثر حركة عثمان دانفوديو على دعوة المهدية في سودان وادي النيل)،في: عبدالله عبد الماجد إبراهيم،المرجع السابق، ص129.

(24) الراوي:عبد الحسيب الشريف عبد الله، معلم سابق، يعمل الآن بدولة قطر، باحث في التاريخ، التواصل عبر الواتساب.

(25) محمد محمود عمر، الراوي السابق.

(26) تسجيل صوتي من السر النور إبراهيم، طبيب صيدلي ومترجم، يعمل بالمملكة العربية السعودية، التواصل عبر الواتساب.

(27) تسجيل في فيلم توثيقي، العمدة عثمان الشريف عبد الله، شبكة الانترنت.

(28) عطا حسن البطحاني، جبال النوبة: الأثنية السياسية والحركة الفلاحية(1969-1924م)، (الخرطوم: دار عزة للنشر والتوزيع، 2009م) ، ص 114.

(29) الشريف عبدالله الفلاني القاباراوي، فضائل الزراع والحراث والفلاحين،(طبع بمطابع التحرير،(ب.ن))، ص3.

(30) الراوي: محمد حامد إبراهيم،معلم بمدارس كادوقلي، من مواطني البرداب، التواصل عبر الواتساب.

(31) نفس الراوي.

(32) محمد محمود، الراوي السابق.

(33) عمر اسحق أبكر، مرجع سابق، ص 40.

(34) محمد عيسي عليو، الإدارة الأهلية من المهد إلي اللحد-دراسة عننظام الإدارة الأهلية وتطوره(1970-1922م)، (الخرطوم:شركة مطابع العملة المحدودة،2015م)، ص17.

(35) الإدارة الأهلية في السودان، موسوعة ويكيبيديا،(ar.m.wikipedia.org).

لمزيد من التفاصيل، راجع: محمد عيسى عليو، المرجع السابق.

(36) الشريف عبد الله، المصدر السابق، ص3.

(37) عبد الحسيب الشريف عبد الله، الراوي السابق.

(38) عمر اسحق أبكر آدم،دراسة تحليلية لكتاب(فضائل الزراع والحراث والفلاحين) للشيخ الشريف عبد الله محمد ،رسالة لنيل درجة الدكتوراة، قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية-كلية الآداب-جامعة ميدغري ، 2005م، ص 28-8.

(39) الراوي:عمر محمد الشريف عبد الله ، مستشار قانوني، التواصل عبر الواتساب.

(40) بدوي رياض عبد السميع، مرجع سابق ، ص144_ه1.

(41) عبدالحسيب الشريف عبد الله، الراوي السابق.